الشاهد .. بدون ماكياج !!

بقلم محيي الدين محمد

الى الاستاذ رينه حبشي

يبدو اننا نتفق في مقدمات لا حصر لها ، حتى تكون مآخذك بهذه القلة ، ونختلف في نتائج بعيدة الاثر ، لتكون هذه المآخذ بتلك الدقة..

فاذا ما حصرت ـ هذه المآخذ ـ ، كان اخطرها واشدها تطلبا للايضاح ، هو مثالية شخصيتك (الشاهد) وسلبيته ، فما زال هذا الانسان المثالي مطلسما وغامضا ، لان نقطة ـ او بالحري نقطتي انطلاقه ـ تمنعانه من التقدم.وقد كانفي الحقيقةلتوضيحك الهام لشخصيتي الفوضوي والحزبي ان تجنبت الخلط بينهما وبين الشاهد الذي يحمل في صميمه مآثر الاثنين ومباذلهما .

فاولا : ليس الفوضوي ثوريا حقيقيا ، ذلك لانه ضد اي وضع قائم بالضرورة ، اي ليس حرا ، فملكة الوعي اذن منزوعة عنه ومبتورة .وليس الحزبي ثوريا حقيقيا كذلك ، لانه بالنتيجة ليس حرا ، فالحزب يفكر له ويقدمه كالثمرة الناضجة الى التنكيل والى الثورة والى الجريمة .

فهل يمكن للشاهد ان يكون ثوريا حقيقيا ، بمعنى ان يكون حرا في البداية ؟.. لقد راينا ان الشاهد يمكنه ان يكون حزبيا ، ويمكنه كذلك ان يصير فوضويا ، وقدرة التذبذب بين هذه الاقطاب ، اي بين ايجابية الثورة ، وتطلبها لرفض الذات ، وحشر الفرد في نطاق الكل ، وسلبية الفوضوية التي تحاول تغيير المجتمع بطريق قتل السياسيين واحراق رياض الاطفال والكنائس ... قدرة الشاهد على ارتداء هذه الازياء المتناقضة توقعه في الاستحالة والغموض اذا لاحظنا تبعيته الخانقة لفكرة الحب الذي يصدر عنها ..

فهل هو فوضوي حقيقي ، اذا اختار ان يكون فوضويا !.

وهل لا يكون متناقضا اذا كان يدين بالحب الانساني ، ويجد ان عليه كثوري مهمة ان يقتل زعيما سياسيا ..! وسيظل هذا التناقض يؤرجح ارادته بين الفعل واللافعل ليسقط في ابدية السلبية .. وليس على المواقف التي تحتاج المبادرة والحسم وانتهاز الفرصة الا ان تنتظر شكوك الشاهد الفوضوي وحيرته ، وعودته الى ذاته مرة ، والى الحب مرة اخرى والى نصوص الفوضوية مرة ثالثة .. كل ذلك بازاء موقف انساني واحد .. وان على هذا الموقف ان يجمد قليلا ، وعلى البشرية كذلك ان تنتظر !!!..

والتناقض يلبس لا محالة جسد الشاهد حين يختار ان يكون حزبيا .. فالشاهد (هو الذي لا يتخلى عن التامل ولا عن المعرفة الدقيقة للوضع، ولا عن وضوح بصيرته ، ولا عن الارتباط بمسئوليته الشخصية ...)، فكيف يمكن لهذا الجسد الشخصاني المتفرد ان يلبس لباس الحزبي الذي يفرض في البداية أن تنزع عنه هذه الفردية التي هي ميزته ـكشاهد ـ بالذات !

واذا استطاع ـ فرضا ان يدخل في لباس الحزبي : افلن يجد سلوكه متناقضا اذا طلب اليه الحزب الذي لا يقبل نقاش الافراد ، ان يضع قنبلة في عربة الزعيم !؟ الن يكون سلوكه مضادا لفكرة الحب التي يجب ان يتخلى عنها ليصبح حزبيا حقيقيا ؟!

واذا تخلى فعلا عنفكرة الحبليدخل فيلباس الحزبي هلبقي شاهدا؟!

ثانيا : بعد الف وتسعمائة وثمان وخمسين سنة ، كان على ديانة الحبان تكف عن الدعوة وان تصمت ،ففي سبيل هذاالحبالمفترض اخرنا فرصتنا في الحياة والتقدم والاشتراكية ، واذا سمحت لي ، استطعت في فرصة اخرى ان اقدم لك احصائيات سوداء في حاضرنا وماضينا القريب عن عدد الموتى جوعا والمسلولين وسيئي التغذية ، وعن عامل الفقر الذي يؤطر شرقنا العربي ويخنقه ، وعن نسبة الجهل الشائنة التي تدفع بركبنا الحضاري الاف الاعوام الى الوراء ... كل ذلك هو نتيجة تمسكنا الجامد بفكرة الحب واشتراكية الزكاة (!!!) والمضحكات الاخرى .. لقد تخلينا عن طلب العدالة لان تاريخنا قال كما تقول انت (الحب وحده قادر على التوحيد وعلى انقاذ العدالة ..) (!!)

ان هذه الانطولوجيا الجديدة التي تتقدم بها مجردات جابرييل مارسيل في رسم كاثوليكي منجز ، لتعني في البداية بابراز مناقب انسانها المثالية، ثم هي تبيح له ان يلبس لكل حالة لبوسها ، اي ان يرفض مناقبه بالذات ويطرحها مخفيا هذا التناقض بفكرة عن الحرية تسقط هي نفسها من الشكوكية باصرارها على اتخاذ منطق هو ضد الحرية في تاكيدها على فكرة الحب .. فكان على الفرد الحر ان يتخذ فكرة الحب واجبا والاسقط في العبودية .. وها هنا ينزلق المسيحي الحر ، ويصبح هو والمسيحي العبد مشتركين في ملامح واحدة .. ولذلك يسقط الوجودي المسيحي الذي هو الشاهد بكل تاكيد في حما التناقض المنطقي والتقني ..

وان على من ينادي بالحب النظري بين الانا والاخر ، ان يراجع جيدا نهاية السيد المسيح .. !!

ثالثا : يمكن للشاهد ان يكفر بكل مناقبه ، لان قدرته على الانضواء وعلى رفضه ، مطاطة وحبلى بالقبول ، والفرد الذي يمكنه ان يختار الوعي ، ويمكنه ان يخفي هذا الوعي باختياره للنقيض ـ اذ لا يمكن ان اكون واعيا واختار حالة اللاوعي . انني اخفيه وحسب ـ هذا الفرد يحمل امكانيات الخيانة والجبن واللا مسئولية ..

ولا بد من ملاحظة انه بدون اقرار الحرية تنقلب الثورة الى السخرة والدكتاتورية ، او الى الفوضى وتنازع السلطان والهدم . فليس الفوضوي ولا الحزبي ولا الشاهد ثوارا حقيقيين ، انهم اصنام وعبدة ومثاليون ... ذلك لانهم ليسوا احرارا ..

اذن من هو الثوري الحقيقي اذا كان الفوضوي هداما ، والحزبي ليس حرا ، والشاهد متناقضا وسلبيا .. ؟ !!

رابعا : لا بد في البداية ان يكون الثوري حرا ، بمعنى ان يكون نظيفا وخاليا من كافة الجرائيم السابقة التي تلوث انضواءه وتذبذبه ، فليس

(الشاهد) الا التطبيق المثالي لهذه الحالة المتناقضة ، فما الذي يدله على ان الموقف يتطلب العنف ، ما دام مكرها على اتخاذه .. ؟! من الذي يحمل المقياس الذي يقيس به درجة التوتر ليشير اليه باتخاذ الجريمة مثلا؟! واذا كان هو الحامل لهذا المقياس المفترض ، افلن يؤجل في كل لحظة هذا القرار لان جرثومة الحب السابقة التي اختارها قبل ان يصبح فوضويا وحيث كان شاهدا ، ما زالت تؤثر في قراراته ؟!.

ان شاهدك ليس حرا لانه يصدر عن موقف مثالي مسيحي ، ولا بد ان تتدخل اشارة من اشارات الصليب في موقفه وان تعدل من حريته حسب اشتراطاتها . والانسان الذي يحمل الحب في قلبه يحمل معه التسامح والرضى ، وفي فرصة اختيار واحد من المشروعين المتضادين : الحب ، او تنفيذ العدالة بالقوة .. سوف يجنح لانه مسيحي الى اختيار نفس الموقف الذي حدده له ربه ، ثم قتل على الصليب .. واذا اختار تنفيذ العدالة بالقوة سوف يظل متوترا ومائلا الى الجانب الاخر الذي نحت عليه . وسيظل حاملا امكانيات الطيبة ، محاولا تهدئة الحدة الثورية في كل لحظة ، مما يهدد الثورة كلها بالضعف والخور والفشل .. ان اختيارا سابقا يفشل باستمرار حريته الخاصة ويردها الى حتميته كابرة المغناطيس ..

اما الثوري الحق ، فهو الحر الذي لا يصدر عن فكرة سابقة ، والذي لا تحكمه سوى حريته ،فاذا انضوى هذا الفرد النظيف فانه ينضوي بقلبه وحماسه وعنفه وطهره وكل بطولاته .. بدون ان يقلقه ايمان سابق ومحاولات تدخل من فكرة الحب ، وسيكون انضواؤه حاسما وملتهبا لان الفكرة التي يصدر عنها ليست قيدا كفكرة الحب ، تقيد سلوكه باحكامها .. بل هي دافع مسؤولي يحرك ويحمس .. ومن هنا ندرك سر اللا تناقض في موقف الوجودي الملحد .. فحريته وحسب هي منظوره تجاه العالم والاخرين ، وليس اية فكرة تضحي بالنسبة له قيده واقفاله .. !!

ان فكرة الحب تصبح (الواجب الاخلاقي) للمسيحي ، لان ربه حدد له موقفه بذلك ، وهنا تكف القيمة الاخلاقية عن ان تكون كذلك منذ اللحظة التي تتحول فيها من الحساسية الفردية الى الالزام القطعي.. بل انها تصبح قيمة احتمالية في اللحظة التي يصار فيها الى التشكك في نتائجها كواجب ، لان تاثير الشكوك يحتم التراجع والتاني وتقليب الامور من كافة زواياها .. وهنا تصبح الاخلاق طريقا جانبيا للفرار من حتمية الفعل الى سلبية النكوص ، كما تصبح الاخلاق الالزامية ، طريقا جانبيا اخر للفرار من المسؤولية والالتزام ، ليصير الجواب : لم اختر انا ، وقد كان ذلك مفروضا علي.. انه الواجب !..

وهذا التناقض الذي تظهره الوجودية المسيحية ، والذي يؤطرها منذ تناقضها المنطقي الاول ، وهو استحالة ان يكون الله وجودا قبل ان يكون ماهية ، واستحالة ان يكون الانسان حرا في امبراطورية الله .. هذا التناقض يظهر في كل اختيار وموقف مسيحي مشوها وماسخا معنى الحرية الانسانية ، وملوثا اياها في التراب .. من كل ذلك .. تفطن الى ان الشاهد يصبح مثاليا لانه مستحيل التحقق ، ويصبح غامضا لان حدوده مطلسمة وقابلة للاتساع والضيق ، ويصبح سلبيا لان فكرة الحب تمنعه من العمل ..

القاهرة — محيي الدين محمد

١ ـ اقتراح

تلقينا من الشاعرة العربية الكبيرة الانسة نازك الملائكة الكلمتين التاليتين :

تحية العروبة

دأبت مجلة الاداب على ان تكل بكل عدد من اعدادها ناقدا مختصا يتناول موادها بالنقد تحت عنوان « قرات العدد الماضي من الاداب » وقد كان هذا الباب وما زال اكثر ابواب المجلة حيوية فهو يقرب بين الكاتب والناقد ويتيح لهما فرصة لتبادل الراي والمناقشة على صعيد موضوعي . والواقع ان تجربة «الاداب» القيمة في هذا الباب قد القت ضوءا على كثير من المآخذ التي يسقط فيها النقاد وهم يتناولون مادة المجلة ، حتى بت اشعر ان من حق النقد على مجلة « الاداب » ـ وهي بلا ريب المجلة الادبية الاولى في الشرق العربي ـ ان توليه من عنايتها بمقدار ما تولي المادة المنقودة . فاذا كنا نسلم شعراء المجلة وكتابها الى قلم الناقد ونساله ان يتحكم ـ افليس من الضروري ان نسلم النقاد انفسهم الى ناقد يسلط عليهم الضوء ويفحص مناهجهم النقدية ويبدي رايه في اساليبهم ؟ ارجو من الصديق الكريم ان يولي هذا الموضوع عنايته ، واقترح ان تفتح الاداب بابا جديدا ينشر فيها اربع مرات كل عام على ان يتناول الناقد بالنقد باب « قرات العدد الماضي » في الاعداد الثلاثة السابقة دفعة واحدة .

جواب « الاداب » :

نرحب باقتراح الشاعرة الكبيرة ونتبناه ، ونرجو ان توافق على ان تتولى هي نفسها الحلقة الاولى من هذا الباب الجديد في موضوع « نقد الشعر » . فاذا تمت هذه الموافقة ، فسيكون للقراء الكرام حظ قراءة هذه الحلقة الاولى في العدد الرابع (نيسان ، ابريل) من هذا العام .

٢ ـ بيان حقيقة

اكتشفت مؤخرا ان قصيدتي « لنفترق » منشورة في ديوان عنوانه « شموع » للاستاذ الشاعر ابراهيم العريض، وقد رد عليها الاستاذ بقصيدة من وزنها وقافيتها وادرج قصيدتي وجوابه عليها تحت عنوان « رسالة وجوابها » . والحقيقة ان قصيدتي المذكورة لم ترسل في رسالة الى اي انسان وانما قراها الاستاذ العريض ـ كما قراها سواه من القراء ـ منشورة في مجلة الاديب (فبراير ١٩٥٢) . وعليه فانا استغرب اشد الاستغراب ان يسوغ الاستاذ العريض لنفسه ان ينشر قصيدتي المذكورة في ديوانه دون اذن مني ، واستغرب اكثر واكثر ان يسميها « رسالة » مع انه لم يقراها الا في مجلة الاديب . والذي اعرفه ان عرفنا العربي الكريم لايبيح لانسان ان يتناول قصيدة من مجلة ادبية عامة ويسميها رسالة اليه . واظن هذا غير مستساغ في اي عرف اخر غير العربي ايضا . ومهما كان قصد الاستاذ العريض من ذلك ـ وانا احب ان افترض حسن النية دائما ـ فانا اعلن الحقيقة على صفحات « الاداب » للتاريخ .

نازك الملائكة